ليــــلة وداع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قال لى صاحب : « أين نقضى سهرتنا الليلة ؟ »

قلت : « سهرتنا ؟ ؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة ؟ »

فقال برقة ابليسية الاغراء : « انه آخر أيام المعرض ، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهى ؟ »

فقلت : « من ذا نودع فيها يا شيخ ، وقد ودعت شبابك ؟ »

فلم ينهزم وقال : « نودع من خلقهن الله فى أحسن تقويم »

فقلت : ولكن فيهنّ من خُلقن على صور الأبقار والجواميس ، فهل نحتفل بوداع هؤلاء أيضاً ؟ »

فلم يصدّه حتى هــذا ، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهى كما أراد ، وحسناً فعلنا ، فما كان يمكن أن نرى حشدا أعظم من هذا فى مكان أضيق من تلك التى سموها مدينة الملاهى ؛ وكانت النساء أكثر من الرجال ، وهن وحدهن معرض كامل ، فما يخطر للمرأة صورةٌ من صور الخلق فى المرأة إلا وهى موجودة ، وكانت الكثرة من العذارى الخود ، والخرّد الحسان ، اللواتى يترقرق المـاء فى وجوههن من نضرة النعيم ، ويتثنين من اللين فى غير استرخاء ، أما القلة فكانت من الخدلّجات الممتلئات الأذرع والسيقان ، العظيمات الأوراك والبطون ، المترجرجات اللحم ، المستديرات كأنهن البراميـــــل ، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجن بلا توقف

وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندى ، ورفعت يدى إلى جبينى بالتحية العسكرية ! فيسألنى صاحبى عما أفعل ؟ فأقول : « هذه تحية العظمة ياسيدى ! ! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم فى مصر ؟ ؟ لقد آن جدا أن نقر لكل انسان بحقه ومزيته »

والتقينا بأصحاب لنا ، فصرنا جماعة ومضينا نتنقل من مكان إلى مكان ، وإذا بى أرى قريباً لى ومعه صديقة له ، ما رآنى قط مقبلا عليه وهى معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت ، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقى لهم أسماء لا أعرفها لانها مخترعة لا وجود لها ، فأكاد أتميز من الغيظ ، ولكن ماذا أصنع ؟ غير أنى فى هذه المرة أدركته قبل أن يقوم — أعنى قبل أن يرانى ، وكان جالساً معها — كما لا أحتاج أن أقول ، فحملت كرسياً إلى حيث هما ، ووضعته وقعدت عليه أمامهما ، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها — تحية تلين الصخر ، لا بل تذيبه — ولكنّ قريبى ، وقاك الله ، أصلب من الصخر والحديد ، فما كاد يرانى أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها : « تفضلى فقد تأخرنا جدا »

فابتسمت — وهل كان يسعها إلا ذلك وهى ترى هذا منه فى كل لقاء ؟ — فتشجعت وقلت : « ياأخى حرام عليك ! ! ما هــذا العنف ؟ — هذا ذراع غض بض ياسيدى ، وليس بعصا شرطى ... »

فابتسمت مرة أخرى ، فقلت فى سرى هذه علامة الرضى ، وإنها والله لراغبــة فى البقاء ، وتذكرت قول زميلنا القديم : « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » فقلت لها : « العجلة من الشيطان يا مولاتنا . . ومازلنا فى أول الليل ، ومايدريك ويدرينى أنها ليست مشتاقة أن تركب معى واحداً من هــذه القطر التى تشبه الترام وتجرى بالكهرباء وتتــدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات ، وتنشرح الصدور . . . قومى ياستى معى أركبك واحداً منها »

فصاح بى وهو يدفع ذراعه أمامها ليمنعها أن تقوم : « معك ؟ تقول معك ؟ . معك انت ؟ . ياخبر اسود ! . إنت مجنون ؟ »

فلم تفزعنى هذه الثورة ، لأنى أعرف سببها وباعثها ، وقلت له وأنا أبتسم : « صحتك . . صحتك . . لا تهيج هكذا فانى أخاف على قلبك . . ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج أعصابك ؟ . أقعد . . أقعد ساكناً واشرب ماء بارداً حتى نعود اليك . . لن يطول غيابنا عنك . . قومى ياسيدتى . . لا تقلقى عليه . . إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطرابَ الأعصاب »

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق : « أعصاب ؟. قلب ؟ . طبيب ؟ . عن أى شئ تتكلم ؟ . كيف تسمح لنفسك أن تقول إنى مريض بقلبى ؟ . »

فضحكت وقلت : « لا مؤاخذة ! . لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض . . على كل حال . . عقلك . . قلبك . . سيان . . والخطأ مردود . . والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا

النزاع فيحسن أن تدعك وحدك قليلاً حتى تثوب اليك نفسك الوديعة الرقيقة الكريمة الجمة المروءة ا . . . ا . . ماذا أيضاً يا بارد يا أناني ! ؟ »

فأرسلتها الفتاةُ ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسي بأصدائها ، فصار رنينها في قلبي لا في الفضاء . ولكنه قطع عليها الضحك بيمين أقسمها ألا تقوم معي ، فوجمتْ وشعرتُ بقلبي يبكي لها ، فقد كان من الواضح أنها تشتهي أن تركب هذا الترام ، وقريبي يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار ، ثم قلت لها : « لا بأس . . لا بأس . . ما لا يدرك كله لا يُترك كله . . أنظري إلي وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبي فيها خالياً ، فني وسعك أن تتصوري نفسك جالسة فيه كما سأفعل تماماً . . وإلى اللقاء القريب ، وعسى أن تتمتعي بهذه اللعبة التي ألعبها إكراماً لسواد عينيك . . أم تراها زرقاوين ؟ ؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالي . . »

فقال قريبي على سبيل التوديع : « اذهب ، اذهب ولا تعد ! »

فقلت : « يا شيخ حرام عليك ! أنا شاب . . »

وركبت وحدي احتفاظاً لها بمكانها ، وكان يكفي أن أصون لها مكانها في قلبي ، ولكن الوفاء — صانك الله — داءٌ مكتسبٌ . وكان الميدان هادئاً ، والراكبون يتحاورون ، ويهرب بعضهم من بعض ، ويتّقون التصادم ، وإن كان لا خوف منه ، فجريت أنا على نقيض ذلك ، وجعلت وكدي أن أصدم الذي يروقني ، وكنت كلما أقبلت بسيارتي على أخرى لأصدمها أصيح براكبيها — وأنا أدفع بقبضة يدي في الهواء — بمُمم ! فعلا الصخب — كما ينبغي أن يحدث — وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتي التي تركتها مع قريبي ، وشغلني ما أنا فيه عنها ، وألهاني عن ذكرها كما هي عادتي ، فان اللحظة الحاضرة تذهلني عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجيء ، ولعبت دوراً آخر ، ثم غيره ، وغيره ، حتى أضناني الجهد المتواصل ، وابتلت ثيابي من كثرة العرق المتصبب ، فتذكرت قريبي وصديقته ، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرقق قلبه القاسي ، وعدت إلى حيث تركتهما فاذا بهما قد ذهبا . .

أي والله يا ناس ! ! خطفها قريبي — قريبي لا أحد الغرباء — وطار بها وخلفني أتلهف عليها وأسخط عليه ، وأذم الغدر والخيانة والأنانية والأثرة وألعن أمثاله من الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسدُ والحقدُ لا الحب والاخلاص والتعاون على البر والتقوى

ولمحت صديقنا الدكتور م . فقلت أسلم عليه ، وكان حوله سربٌ من الناعمات اللينات ، المسترسلات الأعطاف ، المستغنيات بالجمال عن الزينة ، المُبتّلات الحسن على الأعضاء فلا ترى لشيء في أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقلّ ، فدنوت من إحداهن — وكانت طويلة العنق مسمورةً لا رخوةً ولا مترهّلة — وقلت لها : « ماذا يقول لكن دكتورنا الساحر ؟ . هل لك في رهاني ؟ . »

قالت : « على أي شيء ؟ »

قلت : « على أن عينه زائغةٌ وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعاً ؟ »

فضحكت وقالت : « صدقت »

قلت : « هاتي إذاً ، وليعوضك الله خيراً . . واحذري أن تراهنيني مرة أخرى »

قالت : « ولكني لم أفعل »

قلت : « بلى . . هاتي ! . ما هذه المماطلة ؟ . إنه خلقٌ لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق »

قالت : « أما إن هذا لغريبٌ . . والله ما راهنتك »

قلت : « لا فائدة . . تفضلي معي إلى هذا الترام واركبيه بجانبي ، فان ركوبه موصوف لابراء الذمة »

فضحكت وسألتني : « ولكن من أنت . . »

قلت : « أنا صاحب الدكتور الذي يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر ... تعالي واكسبي صداقتي لتفوزي به وحدك »

ولمحني الدكتور وأنا أمضي بها فصاح : « اللص .. اللص .. أدركوه . خطف البنت .. الحقونا يا ناس »

وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع في مأزق ، فجعلت أصيح مثله : « اللص .... أدركوه .... خطف البنية .... اجروا وراءه »

وانحدرنا الى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك . وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتي على الدكتور واتفقنا أن تركبه سيارة وأن توسعه بعد